

العنوان: قراءة في كتاب عبدالرحمن المودن : البوادي المغربية قبل الإستعمار : قبائل ايناون و المخزن بين القرن السادس عشر و التاسع عشر

المصدر: مجلة أمل

الناشر: محمد معروف

المؤلف الرئيسي: إديل، عمرو

المجلد/العدد: مج 6, ع 16

محكمة: لا

التاريخ الميلادي: 1999

الصفحات: 210 - 215

رقم MD: 129994

نوع المحتوى: عروض كتب

قواعد المعلومات: AraBase, HumanIndex, EcoLink

مواضيع: القبائل المغربية، المودن ، عبدالرحمن، عرض و تحليل الكتب، القرى و المدن، المغرب، ما قبل الإستعمار، قبيلة إيناون، قبيلة المخزن، القرن 16 ، 19م، الجغرافيا الطبيعية، الجيولوجيا، البادية

رابط: http://search.mandumah.com/Record/129994

قراءة في كتاب عبد الرحمن المودن:
البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل ايناون والمخزن
بين القرن السادس عشر والتاسع عشر*

ذ.عمرو إديل**

يشكل هذا الكتاب في الأصل أطروحة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ،تقدم بها الأستاذ المودن في كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط أمام لجنة مكونة من الأساتذة:ابراهيم بوطالب رئيسا،وجرمان عياش مقررا،وأحمد التوفيق والعربي مزين عضوين.

والكتاب يقع في 455 صفحة من الحجم المتوسط،ينقسم إلى ثلاثة أبواب وثمانية فصول،مع تقديم وخاتمة،وفهرست للاعلام وقائمة تصنيفية للمراجع والمصادر.وقبل مقاربة بعض الجوانب المرتبطة بتخصصنا،سنعمل في البداية على تقديم بعض الملاحظات التي نعتقد أنها سوف تساعد على تقريب القارئ من الاطار العام لهذا الكتاب،وأخذ فكرة موجزة عن مضمونه وأهميته.

ملاحظات أولية:

1- لابد ان نشير في البداية إلى أن العمل الذي نحن بصدد مناقشته اليوم يرجع تاريخ انجازه إلى أزيد من عقد من الزمن(1984)،إذ رغم أن لجنة المناقشة قد أوصت بنشره،فإنه لم يصدر ضمن منشورات كلية الآداب -الرباط- سوى سنة 1995.وإذا كان هذا التأخير في إمكانية اطلاع القراء على هذا العمل العلمي الهام يعتبر تجسيدا بالغا لاحد أزمات البحث العلمي ببلادنا،فإنه لا يعني أبدا بأن هذا العمل والاشكالات التي يناقشها قد أصبح متجاوزا.

2-إن شمولية الاشكالية التي يطرحها عمل ذ.المودن،والتشعب الكبير الذي فرضه تفكيكها،قد جعلاه عمليا يخوض في أمور عدة،ولكنها مترابطة ومتكاملة.فهو ينتقل من الايكولوجيا إلى علاقات المدينة بالبادية،مرورا بهيكل المخزن وأنواع الجباية والحركة وصولا إلى التجارة ثم الانتفاضة المحلية.ومن هنا تظهر صعوبة تلخيص عمل من هذا النوع.كما أن أي قراءة له يجب أن تكون متعددة المستويات،وأن تتقاطع مع الدراسة عوض اختزالها.

---

* قدم هذا العرض في إطار المائدة المستديرة التي نظمها فرع فاس للجمعية المغربية للبحث التاريخي يوم 27 ابريل 1997 حول كتاب الأستاذ المودن،بمشاركة عدة باحثين من تخصصات مختلفة (تاريخ-جغرافية-فلسفة وأنطروبولوجيا) ** استاذ باحث بجامعة - المولى اسماعيل - مكناس.

3-حول الوثيقة المخزنية:حدود وإمكانات استعمالها: لعل من حسنات البحث التاريخي الجديد في المغرب،تبديد أسطورة غياب الوثيقة المكتوبة أو قلتها مركزيا ومحليا.وإذا كانت عدة كتابات وأعمال قد صفت الحساب مع هذه الأطروحة الاستعمارية،فإن ميزة كتاب الاستاذ المودن هو انتقاله إلى مستوى جديد من التعامل مع الوثائق المخزنية.فهو كباحث متمرس ومطلع عليها،يحدد أولا رؤيته منها ويستنطقها قبل الاستشهاد بها.

كما أنه لجأ إلى نوع جديد من الوثائق المخزنية،أي تلك المتعلقة بالمسائل الكمية:قوائم حسابية،كنانيش الأمناء...وقام باستغلال معطياتها،ليظهر أولا أهمية"الرقمي"في الكتابة المغربية التقليدية،وليقوم ثانيا من خلالها بحسابات واستنتاجات كمية حول أمور:الانتاج الفلاحي،الجباية،التجارة،استهلاك الحركة...

4-بصدد المنهج المتبع في العمل:يعمد الكثير من الباحثين إلى تسويد صفحات عدة حول المنهج والطريقة المتبعة في بناء النص،بل ويتوسعون كثيرا في مناقشة النظريات والدفاع عن اختيارهم المنهجي.كما أنهم غالبا ما يعودون في خاتمة أبحاثهم إلى هذه المسألة إمعانا في التأكيد على صلاحية واجرائية اختياراتهم.غير أن الأستاذ المودن يغرد خارج السرب.ففي عمل يتكون من أزيد من 450 صفحة،نجده لا يكتب حول المنهج سوى صفحة واحدة،ونفس الشيئ بالنسبة للخاتمة التي عنونها بتساؤلات في الختام.إلا أن هاتين الصفحتين جد غنيتين وتعبران عن موقف منهجي عميق جدا. ففيما يخص المنهج،لا يدخل الاستاذ في النقاش النظري،ولا يعطينا كعادة الكثيرين،شبكة لقراءة العمل،بل يلخص موقفه ببساطة الخبير قائلا:"ولعل ما يكون قد مورس من منهج أثناء بناء النص أدل من أية نية معلنة"(ص22).كما أنه يقدم فرضياته في جمل مختصرة ودقيقة،بتواضع العلماء في كل مرة:"حاولنا"،عوض التأكيدات القطعية السائدة لدى البعض. أما الاستنتاجات والخلاصات وكما عبر عنها هو نفسه،فهي"تساؤلات"حول البحث،ومدى اسهامه في الكشف عن جانب مجهول من تاريخ البادية المغربية.يقول:"وهل أفلح من خلال كل ذلك في الاطلال على السفح المخفي من تاريخ المجتمع المغربي عامة والقروي خاصة؟"(ص416).كما يطبق نفس الطريقة على مدى الاستفادة من المادة العلمية المستعملة ودرجة الانفتاح على حقول معرفية أخرى.إن هذه "التساؤلات الختامية"تفتح أبوابا جديدة وآفاقا أخرى للبحث التاريخي.إن طرح العمل الذاتي موضع التساؤل هو في اعتقادنا أعلى درجات الاقناع المنهجي وأكبر دليل على التواضع العلمي المميز للمؤلف.

5-وأخيرا،فإن من أهم ما يميز عمل الأستاذ المودن كذلك،هو ارتكازه على الاستعمال المنهجي الناجح لأدوات معرفية مساعدة لفهم الموضوع.فإلى جانب الوثائق المصورة(رسائل،ظهائر...)نجد عدة خرائط وأشكال بيانية.غير أن ما يلفت الانتباه أكثر هو مجموعة الجداول الكمية التي قام الأستاذ إما بأخذها من الوثائق المخزنية،أو حاول بنائها انطلاقا من عدة مصادر،بل وصل أحيانا إلى القيام بحسابات

إحتمالية لعدة أمور،بهدف اعطاء بعد كمي لدراسته.وتعد هذه المحاولة رائدة لتجاوز التاريخ الوصفي،وبناء مقاربة جديدة لمعرفة الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية(أمثلة عديدة حول القوافل،والضرائب،وتهريب الماشية نحو الجزائر...)إن مثل هذه الممارسة تفتح أبوابا جديدة.لزيادة التعريف بجوانب منسية أو مجهولة في تاريخ البوادي المغربية.

جدلية الترابط بين الجغرافية والتاريخ في حوض ايناون.

لعله من نافلة القول التذكير بأهمية الاطار الجغرافي في كل دراسة تاريخية.غير أن ما يميز تعامل الاستاذ المودن مع هذا الموضوع،هو نجاحه في تجاوز النظرة الوصفية الجامدة لمعطيات الوسط الطبيعي،والتركيزعلى العوامل المؤثرة في مجرى أحداث التاريخ.صحيح أنه يعطينا صورة موسعة وشاملة عن تباينات السطح،ومفارقات المناخ وتعدد المجاري المائية،لكنه يؤكد بالأساس على تفاعل وتأثير هذه العناصر على تطورات الأحداث،وأشكال التنظيمات الاجتماعية.وهكذا فإن سيادة التربة الطينية وكثرة المجاري المائية في المناطق المنخفضة طالما عرقلت التحركات البشرية(التجارية والعسكرية على السواء)،مما جعل المسالك تتفادى المجالات المحاذية للوادي.كما ان الطبيعة الجبلية للجهات الجنوبية الشرقية من الحوض طالما ساعدت السكان على الاحتماء من الضغوطات المخزنية(الجباية والحركة). وهكذا تظهر منطقة ايناون كحوض نهري،فيه عالية(جبال الأطلس المتوسط في الجنوب ومرتفعات الريف في الشمال) وسافلة(تلال الحياينة وهضاب تاهلة وبني سادن) وأخيرا مجرى واد ايناون.إن هذا التنوع الطبوغرافي يرافقه تباين بشري،ويظهر ذلك في تعدد القبائل المستوطنة لحوض ايناون(التسول،البرانس،الحياينة،آيت أوراين،غياثة وبني سادن).

وإذا كانت ظروف الوسط الطبيعي تفرض عدة محددات على النشاط الانساني،مثل العراقيل المطروحة أمام التنقل (منعرجات الأنهار،ظروف المناخ والتربة...)أو مناعة المناطق المرتفعة مما يجعلها في منأى عن ملاحقة اللاجئين إليها...فإن هذا الحوض رغم ذلك ليس مجالا منغلقا،بل هو مفتوح بشكل واسع غربا،وضيق نسبيا في الشرق(مضيق تازة)،ولذلك فهو يتأثر بمؤثرات طبيعية(تباين التيارات الهوائية الشرقية والغربية وتأثيرها على الانتاج الفلاحي) وبشرية(مجال لمرور وتحرك السكان على شكل هجرات جماعية،أو جيوش،أو قوافل حجية وتجارية).إن وظيفة الممر الذي لعبه هذا المجال في تاريخ المغرب كان له دور أساسي في تشكيله بشريا واقتصاديا.وهكذا نجد أن السكان يترعون إلى الاستقرار في المناطق المرتفعة تفاديا لآثار المرور المتعددة الأشكال والأحجام،كما أن استغلال المؤهلات الطبيعية في الدفاع هو الذي جعل السكن يتحصن في أعلى السفوح المطلة على الوادي،وأخيرا فإن ممارسة الرعي كنشاط سائد لدى عدة قبائل ما هو إلا محاولة للاستفادة من التباين التضاريسي والمناخي الذي يعرفه هذا المجال.

ومن جهة أخرى،فقد كان لاستعارة الأستاذ المودن لقاموس الجيولوجيا دور كبير في تفسير أصول ونوع التشكل السكاني لحوض ايناون إذ تظهر المجموعات البشرية على شكل طبقات جيولوجية متتابعة.فهناك كتلة قديمة تكونها قبائل غياتة والتسول ومكناسة،بينما تتشكل الطبقات الحديثة من قبائل حديثة الاستقرار مثل الحياينة وبني سادن وأخيرا آيت وراين.وبالرغم من تنوع الأصول وتعدد البنيات واختلاف علاقات هذه القبائل مع المخزن فإنها تتلاقى في مجموعة من القواسم المشتركة على مستوى الحياة اليومية ونوعية الأنشطة الانتاجية الممارسة،وهي أمورها ارتباط واضح بتأثير الوسط الجغرافي الذي تعيش فيه. وأخيرا،فإن الأستاذ المودن لا يدرس هذا المجال بشكل منعزل عن باقي الوطن،بل انه يظهر كيف أن حوض ايناون من خلال موقعه بالنسبة لخريطة المغرب كمجال داخلي،غير أنه يتخذ أهمية متباينة حسب الظروف التاريخية.فهو أحيانا طرف من أطراف أو هوامش الدولة،يشكل منطقة تماس أو حدود مع الشرق(الأتراك ثم فرنسا لاحقا)وبالتالي فهو منطقة حساسة وتطرح مشاكل للسلطة المركزية(الدفاع عن الثغور،تجارة التهريب...)ولكنه أحيانا أخرى يصبح في قلب الأحداث،خاصة وأن تازة ومنطقتها قد شكلت في عدة مرات منطلقا للمطالبين بالحكم أو للثائرين عليه.كما يبين المؤلف أن حوض ايناون غالبا ما تأثر بأحداث بعيدة،خاصة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر مثل :ثورة عبد القادر الجزائري،حرب تطوان،تجارة الأسلحةالمهربة...

إن هذا الفهم والتحليل المزدوج لأهمية المجال المدروس في بنيته الداخلية ومن خلال علاقاته مع الخارج هو الذي يعطي لعمل المودن بعده المنهجي الموفق.

قبل انهاء هذه الفقرة،نريد أن نطرح بعض التساؤلات التي أوحت بها لنا قراءة الباب الأول من كتاب الأستاذ المودن والمعنون ب "البيئة والانسان في ايناون".

-كيف يمكن تفسير غياب تجمعات حضرية على طول الممر بين فاس وتازة،رغم أهمية وتنوع أشكال التنقل فيه؟هل يرتبط غياب المحطات أو "التزالات"بالظروف الأمنية فقط؟

-انطلاقا من أهمية العنصر الديني في تفسير أحداث القرن التاسع عشر وما قبله،ما هو الدور الذي لعبه الانتماء الحقيقي أو الوهمي للسلالة الادريسية؟ولماذا شكلت هذه المرجعية أساس الحركات المتمردة(الهبري،بوحمارة وما قبلهما..)وكذلك إطارا لتوسع قبائل آيت وراين نحو الغرب مثلا؟.

-أهمية الجبل -طبيعيا وبشريا-ومدى تأثيره على الأحداث في ايناون خاصة وأنه شكل تاريخيا ملجأ للاحتماء من يد المخزن،وقاعدة خلفية تزود الثائرين عليه.

علاقات المدينة بالبادية في حوض ايناون.

تعتبر مسألة العلاقات بين المدن والبوادي موضوعا أساسيا ومفتاحا رئيسيا لفهم تركيبة وتطور المجتمع المغربي.وبحكم تنوع وتعقد هذه العلاقات،فإننا في حاجة ماسة إلى تفحصها والتعمق في دراستها.وفي هذا الباب تعتبر مساهمة الأستاذ المودن أساسية،لكونه استطاع أن يبرز تنوع واختلاف هذه العلاقات من خلال نموذجي فاس وتازة.ففاس كعاصمة للمخزن،تمارس علاقات مع البوادي المجاورة لها تتميز بالهيمنة والسيطرة.فهي تستقطب المنتوجات الفلاحية وتلعب دور الوسيط التجاري الذي يجمع ويوزع في نفس الآن.كما أن الفئات الاجتماعية العليا(أعيان،قواد،أشراف)تمتلك عدة عزبان تمارس من خلالها علاقات تتميز بالهيمنة والاستغلال المتعدد الأشكال.وقد تصل هذه العلاقات إلى مستوى ممارسة العنف بنوعيه:المادي (الحركة لتأديب و"أكل"القبائل الرافضة لأداء الواجب)والرمزي(من خلال فتاوي علمائها الذين وصلوا إلى درجة تكفير سكان البوادي-راجع مسألة تكفير الحياينة:ص.365 وما بعدها).
اما في نموذج تازة،فإن هذه العلاقات تتميز بالعكس،إذ بحكم موقعها الجغرافي،نجد أن هذه المدينة تعاني من التطويق والحصار الذي غالبا ما يفرضه سكان البوادي المجاورة لها.وهكذا تعددت أحداث المواجهة بين المدينة والبادية،إذ لجأ سكان هذه الأخيرة مرات عديدة إلى قطع الماء عنها،بل وقاموا بالهجوم على الحامية العسكرية المخزنية الموجودة بها،واعترضوا الامدادات الموجهة إليها من العاصمة فاس.

إن مقاربة الأستاذ المودن لمسألة العلاقات بين المدينة والبادية في حوض ايناون تظهر تعدد وتنوع مستويات هذه العلاقات.وهكذا فالحدود الفاصلة بين المدينة والبادية تتجسد ماديا من خلال الأسوار المحيطة بالمدن لحمايتها.كما أن أبوابها تشكل إطارا لمراقبة الوافدين عليها وأحيانا تساعد على القاء القبض عليهم.ومن جهة أخرى فإن المدينة تمارس هيمنة ادارية على مجالها القروي،فهي التي تحكم البادية من خلال تعيين القواد والقضاة،كما أنها تشكل منطلقا لعمليات الردع والقمع الموجهة للبادية من خلال تجنيد الحركات والامداد.أما على المستوى الرمزي فإن هذه العلاقات تمتاز بتحقير المدينة للبادية من خلال مسألة التكفير التي أشرنا إليها سابقا. أما الجانب الاقتصادي في هذه العلاقات فيتميز من جهة،بكون المدينة تزاحم البادية فيما يتعلق بالموارد،إذ أنها تستحوذ على جزء من المياه،كما أن سكانها يسيطرون على أراضي فلاحية واسعة(مسألة العزبان).ومن جهة أخرى فإن العلاقات التجارية بين هاتين الوحدتين ليست متكافئة،إذ أن المدينة هي المسيطرة من خلال تجارها الذين يتحكمون في عمليات التبادل .وأخيرا فإن المدينة هي التي تستفيد من الجباية والضرائب المفروضة على البادية. وهكذا يظهر أن المدينة هي في نفس الوقت تجسيد لسلطة المخزن ووسيلة أساسية لفرض هيمنته على البادية ومواردها المتعددة.ويبدو أن علاقة التصادم والمواجهة بين البادية والمدينة هي في الحقيقة تعبير عن التعارض الموجود بين القبيلة والمخزن.

إن مساهمة الأستاذ المودن لا تنحصر فقط في إظهار هذه المفارقة،بل في تجاوز الطرح القائل باستغلال المدينة للبادية،وذلك من خلال إبراز مستويات التمفصل المتعددة والارتباطات المختلفة بين مكونين أساسيين للمجال المغربي فهو يبرز أن هذا التعارض لا يعني دائما بأن هناك انسجاما وتجانسا داخل المدينة أو البادية.كما لا يعني أن الصدام كان دائما،إذ عرف التاريخ الجهوي عدة مراحل للهدنة والتحالف وتبادل المصالح بين الوحدتين :

- مصالح تجارية من خلال تبادل المنتوجات القروية والحضرية.
- المدينة ملجأ لسكان البوادي في حالة الفاقة أو الكوارث الطبيعية والبشرية.
- المدينة خزان للخيرات التي يمكن إعادة توزيعها أو نهبها.
- وأخيرا فالمدينة وسيلة للاتصال بالخارج،خاصة من خلال الموكب الحجي.

انطلاقا من هذه الخلاصات التي وصل إليها الباحث،نريد أن نطرح بعض التساؤلات،نوجزها على الشكل التالي:

- مسألة امتلاك أعيان مدينة فاس للأراضي في بادية فاس وارتباطاتها السياسية والعسكرية والدينية،أي بصيغة أخرى لماذا انتشرت "العزبان"غرب ايناون وقلت في شرقه؟.
- ما هو الدور الذي لعبته تازة داخل مجال ايناون ولماذا لم تتشكل بها بنية اجتماعية مشابهة لفاس؟ولماذا بقيت علاقاتها مع باديتها علاقة اصطدام وصراع؟.
- مسألة الضرائب والجبايات المفروضة على البادية ومدى تأثيرها على ضعف تطور الانتاج الفلاحي،وإلى أي حد ساهمت في نشوء بورجوازية حضرية؟.
- واخيرا لماذا شكلت البادية المجال المفضل لانطلاق الانتفاضة المحلية وبمرجعية دينية وسياسية دون التركيز على الجوانب الاقتصادية المرتبطة بوضعية الفلاحين والأرض؟.

وختاما لا بد أن نذكر مرة أخرى بأن هذا العرض،ومن منطلق التخصص الذي ننتمي إليه (أي:الجغرافية)،لا يغطي سوى جزء يسير من العمل الغني الذي قدمه الأستاذ المودن.وإيماننا كبير بأن الاشكالات الكثيرة التي تعرض لها الكاتب،سوف توحي للباحثين بمناقشات مفيدة،وتفتح آفاقا جديدة للمعرفة التاريخية المرتبطة بالبوادي المغربية.ومهما يكن،فإن أهمية وغنى وجدية المادة المعرفية التي أنجزها عبد الرحمن المودن،لا يوازيها سوى تمكنه الكبيرمن تطويع اللغة وسلاسة الأسلوب ومنطقية التحليل،مما يجعل قراءة كتابه متعة فكرية حقيقية سواء بالنسبة لذوي الاختصاص أو لجمهور القراء.